الثقافة والهوية
قراءة نقدية لواقع الثقافة و المثقف
من خلال التجربة النقدية عند إدوارد سعيد

وردة مداح / جامعة الحاج لخضر –باتنة-

الملخص

هذه الدراسة تتناول موضوع خصب نلج من خلاله عوالم القراءة النقدية لواقع الثقافة و المثقف و علاقتهما بالهوية وهذا من خلال تجربة الناقد و المفكر الفلسطيني **إدوارد سعيد** بوصفه واحدا من أساطين الثقافة المضادة المعاصرة في الغرب و لأنه نموذج ثر يعكس - بحق- مدى تجسيد الهوية الثقافية لتصير القراءة النقدية بعدها لواقع الثقافة والمثقف بمثابة عنصر اختـــــــراق و ابداع و من ثم يصبح إنتاج النصوص بمثابة إنجاز نصي بارتباطه بثنائية الثقافة و الهوية.

Summary:

Cette étude se porte sur le monde de la lecture critique afin de traiter la relation qui existe entre la culture et l'identité culturelle en fait, cette analyse se fait à travers l'expérience réalisée par le penseur palestinien **Edward Saïd** considéré comme l'un des plus célèbres contemporains en occident en effet, ce spécialiste représente un modèle riche qui reflète vraiment l'incarnation de l'identité culturel dans le but de faire de la lecture critique un élément révolutionnaire et créatif. Ce qui induit à la production de textes regroupant à la fois, la culture et l'identité.

مقدمة:

تعج الساحة النقدية الادبية العربية بكوكبة من الدارسين ، و من بين أولئك الناقد الفلسطيني إدوارد سعيد الذي يعد من بين الأسماء الذائعة الصيت، و واحدا من أساطين الثقافة المضادة المعاصرة في الغرب، بحيث استطاع أن يشق طريقه و أن يضع لنفسه منهجا نقديا متميزا فلم تكن تجربته النقدية هامشية على تخوم النقد العربي؛ لأنه لم يكن بمثابة باحث أكاديمـــــــي أو كاتب مقالة فحسب، بل كان بمثابة متكلم باسم الشرق في الغرب ومنافح عن حق ابناء العالم الثالث في تمثيل أنفسهم و تشكيل هوياتهم الثقافية و الوطنية، فوصف بانه مثال جيد للحوار بوصفه مقيما بين الثقافات و على حدودها المشتركة.

أضاف ادوارد سعيد جهدا نقديا متميزا فكان ملهما لعدد كبير من النقاد والباحثين في الدراسات الثقافية -بخاصة-، بحيث يعد أول ناقد حرك الاهتمام باتجاه النقد الثقافي من خلال معالجته لأبرز القضايا التي تتعلق بمفهوم المثاقفة والتداخل الثقافي.

ومن ثم يتسع مفهوم الناقد في منظومة ادوارد سعيد الفكرية النقدية بالمفهوم الواسع الذي يشمل: المفكر، المثقف، الأديب ، السياسي؛ لذلك كان ادوارد سعيد ناقدا عالمي الأفق، مثقفا واسع الاطلاع، متعدد الاهتمامات، ناقدا يحسن القراءة لتصير هذه الأخيرة عنصر اختراق وإبداع، لتنتقل لديه الدراسات النقدية من الانطباعية و الوصفية المبسطة إلى أفاق أرحب بالانتقال من منطق المساءلة لما هو قائم إلى ما ينبغي أن يكون.

مشكلة الدراسة:

في الحقيقة أن هذا الوضع المعرفي المريج قد أغراني بطرح جملة من المساءلات المنهجية حول موضوع الثقافة والهوية في الوطن العربي من خلال قراءة نقدية لواقع الثقافة و المثقف من خلال التجربة النقدية عند إدوارد سعيد؛ ومن ذلكم مثلا مجموعة فرضيات صغرى تمخضت عنها هذه الإشكالية الكبرى أو بالأحرى إشكالية كبرى أنتجت مجموعة كبيرة من الفرضيات جعلتنا نتساءل بالقول: هل ارتباط الهوية بالثقافة يتأتى من كونها قيم مطلقة خالدة تساهم في صوغ حقيقة الإنسان؟ و هل ذلك يعني أن قراءة الهوية ومساءلتها يندرج في إطار نشاط إنساني ضروري؟ و هل الارتقاء بهوياتنا والإعلاء من شأنها يكون عبر عملية التساؤل الدائم حول من نحن و من نكون؟ و كيف صرنا على ما نحن عليه و ما هي العناصر المشكلة لهوياتنا ؟ وما عناصر ثبات و تحول الهوية؟ و كيف تصبح الهوية بارتباطها بالثقافة وسيلة لتوسيع مدار حريتنا و طموحاتنا؟ و هل الثقافة هي صانعة الهوية؟أم أ، الهوية هي الموجدة للثقافة؟، و هل يمكن أن يتخلى النص عن هويته لصالح هويات أخرى ؟ وهل الانجاز النصي المرتبط بثنائية الثقافة و الهوية عند **إدوارد سعيد [كأنموذج نقدي متفرد]** هو عبارة عن ثنائية: قراءة الرسمي والمسكوت عنه؛ أي قراءة نصوص الحكومة والمعارضة فقط، أما أن القراءة تتسع لقراءة نصوص الأغلبية الصامتة التي تعبر عن الحساسية الشعبية خارج الحكومة و المعارضة؟ أم هي قراءة الواحد المتعدد؟ وهل حصر **إدوارد سعيد** قراءاته – يا ترى – من خلال جدلية الثقافة و الهوية في ثنائية الطباقية (الاستعمار و المقاومة مثلا) دون التعمق في قراءة بعض

الظواهر الثقافية العربية؛ مما جعل تحليلاته أحادية؟، و هل الخطاب الثقافي عند **إدوارد سعيد** يقوم – حقا – على مبدأ استعمال الفكر السياسي في تحليل الظواهر الثقافية بوصفه عنصرا من عناصر التحليل و قراءة النصوص و حقلا من حقول العلوم الإنسانية؟ و هل مورست الكتابة و القراءة النقدية عند **إدوارد سعيد** من منطلق الثنائيات المتضادة : القومي / التقليدي، التحرر / التبعية ، المثاقفة / الهوية، الثقافة / القومية ، الثقافة / الامبريالية...؟ و هل يعني ذلك أن **إدوارد سعيد** يأتي في طليعة محللي الخطاب الاستعماري؟ و هل سلك **إدوارد سعيد** منهجا جديدا مستحدثا من خلال تحليله للخطاب الاستعماري – في الوطن العربي - ؟و هل ذلك كله يؤكد لنا أن الاهتمام بثنائية الثقافة و الهوية عند **إدوارد سعيد** فتحت حقلا جديدا من البحث الأكاديمي من خلال تحليل الخطاب الاستعماري؟ وهل يعد كتاب الإستشراق هو نقطة انطلاق الدراسات المتعلقة بالهوية الثقافية في الوطن العربي؟؟؟...

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقــوف عند عتبات الثقافة الجديــدة و الرؤى المعاصرة من و الكشف عن علاقة الهوية بالثقافة، و هذا من مبدأ أن الهوية والثقافة تتبادلان صلات وثيقة؛ حيث أن استيعاب ثقافة يعني في المقام الأول استيعاب عناصر هويتها؛ و لأن الهوية و الثقافة تقعان في قلب ظاهرات التكوين الانساني لذلك ،يمكن القول أن، الصراعات المستقبلية سوف تشغلها عوامل ثقافية أكثر منها اقتصادية أو إيديولوجية؛ لأن الثقافة هي العنصر المتحرك في الهوية لأنها تكتسب و تتطور و تتحول.

و من أجل ذلك تناولت هذه الدراسة موضوع الهوية و الثقافة من خلال تناولها لأنموذج نقدي متميز ألا و هو الناقد الفلسطيني **إدوارد سعيد**

باعتباره منبعا من بين تلك المنابع التي أصبحت تمد النصوص المعاصرة بالقوة و ذلك من خلال تناول مصطلحات و إيحاءات جديدة و طريفة لمواكبة الحداثة أهمها الهوية و الثقافة، حيث يرى **إدوارد سعيد** أن للثقافة سطوة فكرية تتغلغل في أذهان الأفراد و هوياتهم؛ مما يتعين على المثقف الواعي أن يتخذ موقفا معارضا من الثقافة السائدة ، فلا يكتفي بالسكوت و التبعية، و من هنا جاء استعمال **إدوارد سعيد** الفكر السياسي في تحليل الظواهر الثقافية؛ باعتبار السياسة علم مثل العلوم الإنسانية الأخرى تقرأ جوانب النص، فهي بمثابة عنصر من عناصر التحليل وحقلا من حقول العلوم الإنسانية.

وبهذا فهذه الدراسة النقدية لمثل هذا الموضوع الثر من خلال تناول انموذج نقدي متميز، تنتمي إلى ــ إن صحت تسميته بـــ " نقد نقاد الحداثة " و هي ــ كما أحسبها ــ دراسة جادة عميقة جريئة دقت بابا من أبواب تلك التجارب النقدية العربية التي هي أيضا جريئة و عميقة من خلال إثارتها لإشكاليات كثيرة و معاصرة فهذه الدراسة لم تكتف بالتنظيـــر ، و إنما ولجت عالم التطبيق من خلال قراءة بعض كتب **إدوارد سعيد** مثل كتاب "الاستشراق" وكتاب"الثقافة و الامبريالية" و كتاب "صورة المثقف" ... .

ومن أجل ذلك فهذه الدراسة من خلال تناولها لموضوع خصب، المتمثل في القراءة النقدية لواقع الثقافة والمثقف وعلاقتهما بالهوية من خلال تجربة نقدية معاصرة والمتمثلة ــ بطبيعة الحال ــ في تجربة الناقد الفلسطيني **إدوارد سعيد** ؛ تهدف كذلك بتواصلها مع حركات النقد الحداثي و المعاصر في الحث بالانتقال بالدراسات النقدية الحديثة من الانطباعية و الو صفية المبسطة إلى آفاق أرحب من خلال الانتقال من منطق المساءلة لما هو قائم إلى ما

ينبغي أن يكون ، لتصير القراءة النقدية لواقع الثقافة و المثقف عنصر اختراق و إبداع.

المنهجية المتبعة في الدراسة:

سلكت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي بإطلاعي الواسع على مختلف المؤلفات التي لها علاقة بالثقافة والهوية، ثم المنهج التحليلي الذي يقضي دراسة معمقة لما جمعته من مادة من اجل الوقوف على حيثيات هذه التجربة النقدية المتفردة بغرض إثراء صلب الموضوع، كما كنت أحيانا أجنح إلى المنهج التاريخي للإفادة من معطى الاستقصاء فيه، فعرضت بعض أعماله وعمدت أحيانا إلى نقدها و التعليق عليها كلما كانت الفرصة مواتية لذلك.

أود التنويه إلى أن كل ما يبدو على السطح يتعلق بشخصية الباحث أو الناقد بقدر ما يتعلق بموضوع الدراسة؛ غير أن هناك علاقة وطيدة بين الدارس و الموضوع الذي أتناوله بالدراسة. فربما تكون بعض الأحكام التي يصدرها هذا الدارس أو ذاك على موضوعه متسمة بالذاتية، و لكنني سعيت بقدر الإمكان أن أكون موضوعية و أنا أتناول هذه الشخصية النقدية المحدثة و علاقتها بالهوية الثقافية، و إن كنا نعتقد أنه ليس من السهل على أي باحث أن يرصد فكر إدوارد سعيد النقدي إلا بعد امتلاكه لمحة عن حياته بوصفه نموذج متفرد يعكس – بحق – مدى تجسيد ثنائية الثقافة والهوية في الواقع و هذا ما دفع الى محاولة تكوين صورة شاملة عن فكر شخصية سعيد الفلسطينية المتميزة إذا ما قورنت بمعاصريها ومن هنا كان الاعتماد على المنهج التاريخي في هذا الجانب كذلك.

اولا: ملامح الخطاب السياسي و حقيقة الهوية الوطنية:

ومن ثم فالملاحظ أن ادوارد سعيد يرتكز على قراءة جديدة للخطاب الادبي المعاصر فينتهج منهجا ينصرف فيه إلى معاني جديدة هامشية بالتغلغل في باطن النص، و بذلك إنتاج قراءة جديدة و إضافات أضافها الناقد إلى عالم القراءة النقدية بغض النظر عما تحمله من معاني للاستهجان أو الاستحسان و المغالاة في بعض جوانبها، بخاصة ما يمس الفكر السياسي لديه و الافكار الأوروأمريكية.

ومن خلال المتابعة و الاستقراء لأهم أفكار الناقد و ميولاته، يتضح لنا ملامح الخطاب السياسي في خطاباته، فهو يعالج الكتابة السياسية بمصطلح أدبي، و بأسلوب في الكتابة يتسم بحدته وعناده، و هذا يتوافق و شخصية ادوارد سعيد المركبة، الذي يهاجم تارة الأسلوب المعاصر للسياسات الامريكية والاسرائيلية وتارة أخرى يدافع عن شرعية الثقافة والهوية الفلسطينية، وعن عدالة هذه القضية وحقوق الشعب الفلسطيني، فهو بمثابة" المثقف أو الناقد الذي يحمل في هذا المجال مسؤولية علمية و أخلاقية لتأدية رسالة إنسانية عامة، و بذل الجهود و حتى التضحيات في سبيل تلك الرسالة، وعدم الانحياز للسلطة أو للمؤسسات الاجتماعية أو البيروقراطية المهيمنة(...)، فتتضمن في أعماقها عملية "مقاومة"، مقاومة للهيمنة الثقافية و الامبريالية"[2]، و بذلك تتركز اهتماماته والموضوعات التي تناولها حول العلاقة بين القوة و الهيمنة الثقافية الغربية من ناحية وتشكيل رؤية الناس للعالم و القضايا؛ أي معالجة ثنائية "الثقافة والهوية" ، فكانت من أهم القضايا التي شغلت حيزا كبيرا في كتاباته، فهو يشرح لنا من خلالها كيف أن الإعلام الغربي و الخبراء وصناع السياسة

[2]/ مجموعة من الاكادميين: موسوعة الاستشراق.ابن نديم للنشرو التوزيع.الجزائر.ط1. 2015..ص506.

الغربية و الامبريالية الثقافية الغربية تتظافر كلها لتحقيق مصالح غربية غير عادلة في نهاية المطاف ، و ذلك عن طريق إيجاد خطاب غربي منحاز ثقافيا إلى الغرب و مصالحه؛ لذلك " فقد رفض سعيد أن يتقوقع في بيئته الاكاديمية كأستاذ مرموق للأدب الانجليزي في جامعة كولومبيا الأمريكية وفضل(...) أن يكون مدافعا غن القضية الفلسطينية في قلعة الغرب المعادية لحقوق الفلسطيني ، و أن يفكك المفاهيم الزائفة المصطنعة التي بناها الغرب خلال قرون من الزمن عن نفسه و عن الاخر"[3].

ثانيا: الهوية الثقافية و صورة المثقف الجديد:

يشير ادوارد سعيد الى اهمية دور المثقف، هذا الاخير الذي قال عنه المفكر الفرنسي جوليان بندا أنه ينتمي الى "جماعة صغيرة جدا من الملوك الفلاسفة المهوبين المتفوقين الذين يتمتعون بالأخلاق العالية و يمثلون،و من ثم، ضمير البشرية"[4]. حيث حصل به الكثير من التغيير بعد الحداثة، فأصبح المثقفون ينتمون الى الحكومات و المؤسسات، التي من المفترض أن يواجهونها بأخطائها، و التي يطالبونها بالحرية الفكرية للإنسان، أصبحت تحدد لهم مسبقا أطر الحرية.

ولأن المثقف له دور جد فعال في اختراق العقول و تغيير مسار المجتمعات إلى الأفضل"فهو أشبه[في رأي إدوارد سعيد] بإنسان نجا من سفينة غارقة يتعلم كيف يعيش بمعنى ما مع الأرض لا عليها"[5]؛ فالثقافة إذن هي بمثابة عنصر كوني يتسم بالشمولية و الكونية فتسمو على الإقليمية و المحلية و القومية و الزمكانية، فتتسم بلا آنية و لا عرقية بوصف أن ثقافات العالم

[3]/ فخري صالح:إدوارد سعيد دراسة و ترجمات.الدار العربية للعلوم ناشرون.لبنان.2009.ط1.ص23

[4]/ إدوارد سعيد: صور المثقف.تر: غسان غصن. دار النهار للنشر. بيروت/ لبنان. دط. 1996. ص68

[5]/ المرجع نفسه ص 68.

متداخلة و انها تأخذ من بعضها البعض و هذا ما يغني الثقافة على المدى البعيد، لهذا فالثقافة بمفهومها الجديد تساهم في إخراج الثقافة العربية من برجها العاجي الذي ظلت تقبع فيه ردحا من الزمن، فهي ليست نمطا من العيش يمارسه المجتمع بتلقائية فحسب ، بل هي أوسع من ذلك.

إن الثقافة -بذلك- بمفهومها -السابق-الواسع، تقع في قلب ظاهرات الهوية لتتحول إلى عنصر متحرك بداخلها، لأنها تُكتسب و تتطور و تتحول، و يتضح ارتباطها الشديد بالهوية من خلال إدراك علاقتها باللغة، فالثقافة و اللغة تتبادلان صلات وثيقـــــة؛ حيث أن استيعاب ثقافة يعني في المقام الأول استيعاب لغتها، لتمتلك الثقافة بعدها سطوة فكرية تسمح لها بالتغلغل في أذهان الإفراد، مما يتعين على المثقف الواعي المتحدث باسم أغلبية أفراد مجتمعه أن يتخذ موقفا معارضا من الثقافة السائدة، فلا تكتفي بالسكوت و التبعية لأن"المثقف أساسا معني بالمغرفة و الحرية"[6]، و من هذا المبدأ -ربما- كان اعتماد إدوارد سعيد على الفكر السياسي في تحليله للظواهر الثقافية، باعتبار السياسة نافذة مباشرة يطل من خلالها المثقف الواعي من أجل التصحيح و السعي الى الانعتاق من ربقة كل ما هو سائد، و من ربقة الإيديولوجيات الحديثة والمفعمة حتى الثمالة بالنزعة الاستشراقية، و يتأتى هذا بإيقاظ الفكر العربي و الإسلامي و تنبيهه بالكشف عن البنى اللامرئية الكامنة وراء المقول و المكتوب في الخطاب المرئي المتمثل في "السلطة و المعرفة".

ثالثا: الخطاب الاستشراقي و معركة الدفاع عن الهوية:

وبذلك نجد سعيد يبذل جها من خلال عرضه للمغالطات والصور المشوهة المحرفة والمتوارثة عن الشرق، و يتضح هذا من خلال متابعة"تجربة

[6]المرجع نفسه. ص 68.

إدوارد سعيد مع الاستشراق وخصوصا كتبه من قبيل (الاستشراق والثقافة والامبريالية، و تغطية الإسلام، و صور المثقف) فإننا بإزاء نتاج لم يفضح النتاج الاستشراقي و حسب، بل ساهم و أسس بجدارة لهذا النوع من النقد الموسوعاتي، الذي تحتاج إليه أي ثقافة أو حضارة معاصرة(...) لتتسلح بهذه النظرة الثرية والمتنوعة في المجال الثقافي و الحضاري"[7]. و لهذا يمكن القول أن " الاستشراق يشير إلى الشرق ، و الشرق وفقا لسعيد هو نتاج الجغرافيا الخيالية لأولئك الناس الذين جاؤوا لمعرفة أنفسهم و ثقافتهم و أراضيهم لاستثمار المساحة بمعان متشعبة ، فهناك الاحتلال و السيطرة على الأراضي بالقوة المسلحة (...) فالشرق هو صورة المرآة المشوهة للغرب(...) و بلغة أقل تأسيسية، لن يكون هناك أي غرب دون التمثيل الجوهري الغربي للآخر(...) فيعرف سعيد الاستشراق [بأنه] مؤسسة تتعامل مع الشرق من خلال العبارات و الرؤى السلطوية (...)، الاستشراق هو النمط الغربي من الهيمنة و السلطة التي من خلالها يعاد هيكلة الشرق"[8].

ولعل أن سعيد حارب فكرة الاستشراق من خلال تجربة المنفى التي خلقت له فضاء من الرؤى البعيدة للذات و الآخر في ظل بعده عن الوطن، فنجده يتحدث عن المنفى من وجهة نظر خاصة و متفردة فيقول في معرض إجابته عن التساؤل الموجه إليه عن ماذا يعني المنفى بالنسبة إليه، فيجيب بالقول:"...أنا أدرك أنني أكثر من شخص واحد، أو أنني على الاقل ليست هوية أحادية و ثابتة و متجانسة، و بالنسبة إلي شرط المنفى يعني الحرية في

[7] / مجموعة من الاكاديميين: موسوعة الاستشراق. ابن النديم للنشر. الجزائر. ط1 . 2015 .ص67.
[8]وليام هارت: إدوارد سعيد و المؤثرات الدينية و الثقافية.تر: قصي أنور الذبيان. هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث كلمة.أبو ظبي.ط1. 2011.ص102-103

اقتفاء هذه الخيارات دون أن أعبأ بالمكان(...)"[9]. و تتضح فكرة الانتماء و لاإنتماء لدى سعيد من خلال تعبيره عن أزمة تعدد انتمائه، فهو خارجي من خلال سيرته الذاتية في كتابه الموسوم بـــ:"خارج المكان" فهو توضيح لهذه النظرة، لكن في الوقت ذاته يحاول سعيد في كتابه السابق الذكر و في كثير من أعماله أن لا يفصل نفسه و انتمائه للعالم العربي فنجده منافحا عن الهوية العربية فيقول : "والانفصام الكبير في حياتي هو ذلك الانفصام بين اللغة العربية، لغتي الأم، و بين اللغة الإنجليزية و هي اللغة التي بها تعلمت وعبرت تاليا بما أني باحث و معلم(...) إلى جانب اللغة كانت الجغرافية في مركز ذكرياتي عن تلك السنوات الأولى خصوصا جغرافية الارتحال، من مغادرة و وصول و وداع و منفى و شوق و حنين إلى الوطن و انتماء، ناهيك عن السفر ذاته فكل واحد من الأمكنة التي عشت فيها(...) يملك شبكة كثيفة و مركبة من العناصر الجاذبة، شكلت جزءا عضويا من عملية نموي و اكتسابي هويتي و تكويني وعيي لنفسي و للآخرين..."[10]. .

و من الواضح أن إدوارد سعيد يحاول معالجة هويته الوطنية و القومية فيتبنى الدفاع عن انتمائه الفلسطيني بوصفها قضية قومية فيؤكد ذلك في قوله "نحن في وضعية فريدة، إذ أننا شعب يقول أعداؤه أن لا وجود له، لذلك يعني مفهوم الحقوق بالنسبة إلينا حق الوجود كشعب، كجسد جماعي متكامل، عوضا عنه كمجموعة لاجئين، أناس بلا دولة، مواطني بلدان أخرى، لهذه المسألة معنى ملح بالنسبة إلينا، لأن نضالنا ضد الحركة الصهيونية في البداية، و من ثم ضد إسرائيل، لطالما كان نضالا هدفه الوصول إلى الخطوة الأولى(...) في

[9]إدوارد سعيد: تعقيبات عن الاستشراق.تر:صبحي حديدي.المؤسسة العربية للدراسات و النشر.بيروت/لبنان.ط1. 1996. ص156-157

[10]/ ادوارد سعيد: خارج المكان(مذكرات).تر:فواز طرابلسي.دار الاداب.بيروت/لبنان.ط1. 2000. ص22

ظل المناخ الحالي لمفاوضات السلام، كما تسميه الولايات المتحدة بعملية السلام، لا توجد عبارة يستخدمها الامريكيون أو الاسرائيليون تشير إلى أننا نتمتع بـــ[حق] تقرير المصير"[11]. فنجده بذلك يحاول توثيق امتلاك الفلسطيني للأرض رادا على ادعاءات إسرائيل و الرأي العالمي المضللة المشككة في الوجود الفلسطيني، فيقول:"إقامة دولة إسرائيل كانت عبارة عن كارثة، إنه صراع مآس (...) جاءت إلى فلسطين بقايا الشعب اليهودي الذي تعرض في أرووبا لمذابح على أيدي المعادين الغربيين للسامية و كان جزء منهم قد جاء قبل الحرب العالمية الثانية، لكن وضع الناجين و دولتهم و إقامة دولتهم ، كانت على دمار مجتمعنا "[12].

إذا فادوارد سعيد لم يفصل نفسه عن انتمائه للعالم العربي فنجده منافحا عن الهوية العربية؛ و لذلك فلا مناص من القول أن الهوية الإنسانية يمكنها أن تتم بالتنوع و التعدد من خلال تشكلها من انتماءات متعددة و وجوه متحولة"فليست الهوية بنية مغلقة و إنما هي بنية متحولة باستمرار (...)إنها مصطلح يعكس نفسه تحت مجهر الزمن ومعاييره، و في سياق علاقة تبادلية تنهض على التفاعل مع معطيات الوجوه و مكونات المحيط، بحيث لا يمكن التعامل معه بمعزل عن إدراك مناحي تأثره الثقافي و الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي و القانوني،إلخ"[13] ، و لذلك اكتسبت الهوية ما يسمى بالكونية أو العالمية التي تشتمل جميع الثقافات الإنسانية من خلال إدراك الكون و التعايش معه، و الهوية الكونية لدى ادوارد سعيد هي أبعد من ذلك فتتجلى من خلال

[11]ادوارد سعيد : السلطة و السياسة و الثقافة(حوارات مع ادوارد سعيد). تر: نائلة قليقلي حجازي. دار الاداب للنشر.بيروت/لبنان.ط1.2008.ص273.

[12]/ المرجع نفسه .ص ص275-276.

[13]/عبد الرحمن بسيسو: الثقافة و معركة الدفاع عن الهوية. وزارة الثقافة/مشروع الخطة الاستراتيجية للثقافة الوطنية.غزة.16 افريل 2005.ص04

استقراء تجربته النقدية و الشعورية أنها تقدم لنا صورة عالمية للإنسان المهمش [الفلسطيني] المقموع في وطنه و في منفاه، و لعل هذا ما أدى "بدعاة اليمين الأمريكي المتطرف، في الإدارة و الكونغرس و في المؤسسة الأكاديمية الأمريكية، ضرورة محاربة الاثر الذي مارسه إدوارد سعيد بشخصه و كتاباته على المؤسسة الأكاديمية الأمريكية و على مراكز دراسات الشرق الأوسط فيها، و قد بدأت الحملة على ادوارد سعيد منذ سنوات طويلة كما نعلم؛ منذ وسمته مجلة كومنتري الصهيونية الأمريكية بأنه "بروفيسور الإرهاب"، ثم عادت هذه المجلة لتشن عليه حملة شرسة محاولة تجريده من فلسطينيته، و الادعاء بأنه يكذب بشان سيرته الذاتية و نشأته في مدينة القدس"[14]، و هذا هو حال المثقف الكوني المتمرد على ثقافة الآخر ، المثقف الداعي إلى مقاومة الثقافة الامبريالية والاستعمارية الهمجية بكل اشكالها، هو ذلك المثقف النموذج من أمثال إدوارد سعيد الذي تمكن من اختراق الفكر والثقافة الغربية، و فضح العقلية الغربية القائمة اساسا على التسلط و الهيمنة المتضمنة لكل عناصر الهمجية و الصفات لا إنسانية،"إنه ذلك الشعور الوسواسي الواعي أو غير الواعي بالتفوق و الميل إلى الهيمنة ، و كما يقول محمد الدعمي: لقد عبر هذا الموقف الغربي الفوقي عن نظرة دونية للماضي العربي الإسلامي من خلال الشعور بحرية استثمار تاريخنا(...)[و مصادرة ثقافتنا و حضارتنا] فعقدة التفوق تجاه الأخر غير الأوروبي متجذرة في العقلية الأوروبية"[15] و التي نتج عنها حب مبدأ تدمير هوية و وجود هذا الآخر فظهر بعد ذلك ما يدعى نظرية ما بعد الاستعمار ليصبح بعدها إدوارد سعيد هو ناقد هذا الفكر

[14]/فخري صالح: ادوارد سعيد دراسة و ترجمات.ص29.
[15]/علي ابراهيم النملة: صناعة الكراهية بين الثقافات و اثر الاستشراق في افتعالها.دار الفكر.دمشق.2008.ص ص21-22

الاستعماري الجديد فكانت جهوده بعد ذلك جهودا مؤسساتية لهذا الفكر و تعد كتب سعيد (الإستشراق)و(الثقافة و الامبريالية)بمثابة مفاتيح نقدية بارزة في هذا المجال، بحيث إنهما كتابان"ينطلقان في جوهرهما من هذا المكون [المفضي إلى ضرورة تحطيم قوالب الأنماط الثابتة المفروضة على الفكر الإنساني] فالكتاب الأول [الاستشراق] نقد ثقافي مضاد لكل البديهيات المؤمنة بكل أصولية نزاعة إلى المركزية الأوروبية بوصفها مصدر إشعاع تغمر بضيائها الثقافات الأخرى و العلة في ذلك ما قدمته الدراسات الإستشراقية التي صعد نجمها في مرحلة تاريخية ترافقت مع التوسع الاستعماري خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، و في الكتاب الثاني [الثقافة و الامبريالية] تحليل للخطاب الأدبي الغربي و اعادة النظر في الكثير من المسلمات التي روج لها الخطاب الغربي في الأجناس الأدبية و العلوم الإنسانية (...)فالكتاب مقاومة نقدية إن صح التعبير لا تستلم للخطاب دون مساءلته"[16]

رابعا: ما بعد الكولونيالية والا ٔ باز النصي الجديد:

من ثم يمكن القول أن ادوارد سعيد أنموذج متميز لمثقف ما بعد الاستعمار الذي حمل غلى عاتقه مهمة نقد المستعمـــــر و كشف كافة أشكال الاستعمار التي لا تزال موجودة و بشكل خفي باستتارها وراء الخطاب الاستعماري القائم على مبدأ الممارسة التهميشية و التضليلية للرأي العام العالمي بغرض التحكم في العلاقات في العالم أجمع من خلال "تمرير أخطر الأنساق و أشدها تحكما فينا"[17] و هذا ما أبرزه "إدوارد سعيد بأن هناك سمات ملازمة للنصوص التي تناول البلدان المستعمرة، و التي مصدرها أنظمة

[16]/ يحي عمارةالتاريخ و النظرية الادبية.جريدة القدس العربي.السنة الحادية و العشرون.العدد6257.الجمعة17جويلية2009.ص10.

[17]/ عبد الله الغذامي: النقد الثقافي .المركز الثقافي العربي.المملكة المغربية/الدار البيضاء.2005.ص77

عقائدية تهيكل القوالب الخطابية، و تعطيها المصداقية و القوة، علاقات السلطة التي تجدها في الامبريالية(...)و حاول بيتر هيولم أن يأخذ من عمل إدوارد سعيد و نظرية الخطاب بصفة عامة للتنظير حول تعقيد الخطاب الاستعماري و بدل أن يفترض كما فعل سعيد، بأن هناك خطاب استعماري واحد فحسب، اعتبر أنه كانت هناك خطابات مختلفة متداولة في فترة الاستعمار لا تصور كلها الاهالي بطرق سلبية"[18]، و بهذا يمكن القول بانه "يتسع مفهوم الناقد في منظومة إدوارد سعيد الفكرية و النقدية ليشمل الناقد الثقافي بالمفهوم الواسع الشامل : المفكر و المثقف و الفيلسوف و الأديب و المؤرخ و السياسي و الانثروبولوجي و الأكاديمي الباحث في مجال العلوم الإنسانية بعامة"[19].

و لذلك فلا مناص من القول أن "أهمية الناقد المثقف تكمن –بالنسبة اليه- في طرح الأسئلة الديكارتية المبنية على إشكالية كل ما هو موجود قابل للشك و اعادة النظر و التفكير، فلا يقين إلا بعد الشك و لا جديد الا بعد تحطيم قوالب الانماط الثابتة و التعميمات الاختزالية التي تفرض قيودا شديدة على الفكر الانساني و على التواصل بين البشر"[20]، و هذا ما يحيلنا الى القول بان الشكل الهوياتي المثاقفاتي هو شكل من اشكال امتداد ظاهرة تمجيد الاختلاف الناتج عن الديناميكية الايديولوجية المتنوعة (اشتراكية /راسمالية...)، كما انه تشكل في اطار الدمج االسياسي الذي يتجاوز الحدود الوطنية و ما تتضمنه هذه الاخيرة من معنى يرمي الى تواجد كل من الهوية و الثقافة في تشكل جديد يخضع للعولمة العالمية،فنتج عن ذلك تصادم و صراع و تنافر بين العولمة و الهوية الثقافية؛ إذ تسعى العولمة الى خلق منظومة واحدة تهدف الى القضاء

[18]/ حفناوي بعلي:مدخل في نظرية النقد الثقافي.منشورات الاختلاف.الجزائر.ط1.2007.ص ص65-66.
[19]المرجع نفسه.ص85.
[20]يحي عمارة.المثقف الكوني بين التاريخ و النظرية الادبية. ص10.

على الحدود و الخصوصيات، في حين تدافع الهوية عن التعدد و الاختلاف و تسعى الى الاعتراف بالتنوع و ترفض الذوبان، لذلك فعولمة الثقافة تعد اداة للهيمنة و السيطرة، و هذا كله أدى الى خلق الجدل المثار حول مسالة الهوية و الثقافة و ما مدى تجسيد مظاهر الثقافة في المجتمع بشرط أن يحظى كل منا بهويته، و لذلك فادوارد سعيد ممن يعارض مبدأ الذوبان في الآخر لأن الهوية شبيهة ببطاقة الهوية الشخصية لأن"الهوية بطاقة يثبت فيها اسم الشخص و جنسيته و مولده و عمله"[21] و هذا ما ادى الى انتاج الخطاب الكولونيالي / الاستعماري الذي لا يعد نتاج لإدراك المجتمعات فحسب بل يعد بمثابة معرفة تستغل من طرف مراكز استعمارية هدفها إخضاع الشعوب المحتلة والمستعمرة و هذا ما اشار اليه ادوارد سعيد في كتابه تغطية الاسلام في قوله:"اما فيما يتعلق بالاهتمام الاوروبي بالثقافات الاجنبية فلقد كانت هذه الظروف دائما تجارية او استعمارية او ناجمة عن التوسع الحربي و الغزو و بناء الإمبراطوريات[22] .لكن من الضروري الاشارة الى ان الانكماش و الانطواء على الذات لا يعد وسيلة ناجحة للوقاية من الذوبان في الاخر و تلاشي الهوية من خلال العولمة الثقافية هذه الاخيرة التي تعد ظاهرة واقعية تفرض نفسها بحكم النفوذ السياسي و الضغط الاقتصادي و التغلغل المعلوماتي والإعلامي التي يمارسها النظام العالمي الجديد.

لذلك يجب اتباع مسار التعايش من خلال تطوير ذات الهوية دون التخلي عن الثوابت المكونة لها، و جعل هذا التطور و التحول الثقافي ليس موجها ضدنا بالضرورة و إنما هو لصلاحنا إن نحن حافظنا على هويتنا

[21]/ عبد الرحمن بسيسو: الثقافة و معركة الدفاع عن الهوية.ص04.
[22]/ ادوارد سعيد: تغطية الاسلام.تر:محمد عناني.رؤية للنشر و التوزيع.القاهرة/مصر.ط1. 2005. ص281.

الثقافية في ظل التعاطي الحر الايجابي مع العالم و المستجدات الدولية و آنذاك تصبح الهوية هي مجموع"القيم المطلقة و الخالدة التي تسهم في صوغ حقيقة الانسان الممكنة كحقيقة تتأسس عليها إمكانية ذهابه في رحلة تحمله الى كمال محتمل فالهوية [بذلك اصبحت] تماثل النواة (أو البذرة) من حيث ممكنات تحولهما الى شجرة او نبتة، حيث كلاهما جوهر كامن قابل للانخراط في صيرورة تحوله؛ [و من ثم] فالهوية هي ثابت الانسان و تحولاته أو هي جوهره المجرد و تجلياته العيانية الممكنة و المتغايرة و المتحولة في سياق صيرورة دائمة"[23] وعليه فمساءلة الهوية الثقافية بغرض قراءتها و معرفة كنهها يفضي بنا الى القول أنها"ليست مطلقا يسبح في فضاء بلا هُوية [بلا معنى و بلا تعريف] و انما هي ذات انسانية فردية أو جماعية تنصهر في ذات ثقافية تقوم على التعدد و الوحدة و على التحول الدائم على محور ثبات تماما مثل القناع الذي هو بنية عميقة أو منظومة علاقات ثابتة و متحولة يمكن إدراكها من خلال المحور الثابت الذي تتحرك عليه تحولات ترسخ دلالة أن الهوية في تخلُّق مستمر و أن الذات لا تجد حضورها إلا بانفتاح الأنا على ذات تتجسد في آخر سواها "[24] وهذا ما أدى الى الكثيرين من دعاة الانفتاح و العصرنة إلى امتزاج و اندماج الهويات الثقافية يقول علي حرب :" لا تكن ذاتك و لا غيرك بل تغير عما انت عليه لكي تستطيع التواصل و التعايش مع غيرك بلغة الحوار و المفاوضة و ثقافة المشاركة الفعالة و المسؤولية المتبادلة"[25] أي ان الهوية الثقافية في تحول مستمر يفرضه التنوع و التعدد و

[23]/ عبد الرحمن بسيسو:الثقافة و معركة الدفاع عن الهوية.ص5.
[24]/ المرجع نفسه.ص6.
[25]/ علي حرب: حديث النهايات-فتوحات العولمة و مازق الهوية.المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء/بيروت. دط.2000.ص ص 194-195.

الانفتاح العالمي الذي يضم مجموعة من الثقافات و اللغات و الاعراف المتعددة و المختلفة غير ان ثمة قيم و مثل عليا و ثوابت تتوحد حولها الامم و الشعوب و تشكل بالنسبة لها إرثا مشتركا ينبغي حمايته و الدفاع عنه لذلك يجب توجيه التنوع الثقافي لصالح جهود التنمية و التحضر و من ثم فالاختلاف يمكن أن يستغل كحافز للاستقرار إذا كانت مرجعيته هوية الامة و جماع الوطن و الدولة بوصفها التجسيد القانوني لوحدة الوطن و الامة، و ما يمس واحدة من هذه الاخيرة يمس الهوية الثقافية لها.

خامسا: الهوية الثقافية و استراتيجية الوعي المثاقفاتي لدى المثقف النموذجي/ادوارد سعيد:

و بهذا نخلص الى القول أنه يمكن لاستراتيجيات الهوية أن تعالج الثقافة او تغيرها فالهوية هي السمة الجوهرية العامة لثقافة من الثقافات و هذا ما يبرر اختلاف الهويات الثقافية من مجتمع إلى آخر و من عصر الى عصر بحكم اختلاف التوجهات الفكرية و الإيديولوجية لمنتجي ثقافة ما.

و بهذا المعنى يؤكد ادوارد سعيد أن الهوية الفلسطينية لم تتعارض فيها مكونات الثقافة و انفتاحها مع خصائص الهوية الوطنية و القومية فيتحدث عن الهوية الفلسطينية في معرض حديثه عن دور الثقافة في حركات المقاومة بقوله أن"المقاومة الفلسطينية(...) تضم إطارا كاملا من اشكال التعبير الثقافي الذي بات يشكل جزءا من تماسك الهوية الفلسطينة و بقائها فهناك سينما فلسطينية ومسرح فلسطيني و ادب بكل ضروبه، كما يتوافر خطاب فلسطيني نقدي وسياسي ، و عندما يتعلق الامر بالهوية السياسية عندما تكون عرضة للتهديد، فان الثقافة تمثل اداة للمقاومة في مواجهة محاولات الطمس و الازالة و الإقصاء .إن المقاومة شكل من اشكال الذاكرة في مقابل النسيان و بهذا الفهم

أعتقد أن الثقافة تصبح على قدر كبير من الاهمية لكن هناك بعدا آخر للخطاب الثقافي يتعلق بالقدرة على التحليل بمعنى ان تتخطى القوالب الجاهزة وتضطلع بمهمة تصحيح الاكاذيب"[26] .

ولعل أن الهوية الثقافية الفلسطينية هي مرتبطة بالمقاومة من أجل التحرر وإثبات الذات و الوجود الفلسطيني، يقول ادوارد سعيد: "إن هويتنا تقيد و تحبس و و تحاصر في جزر صغيرة خائفة ضمن محيط غير مضياف تحكمه قوة عسكرية عليا تستخدم رطانة إدارة حكومية تؤمن بالطهارة العرقية الخالصة"[27] .

وفي ضوء ما سبق ندرك ما حققه الحضور النصي الادواردي في انشاء خطاب مغاير للمألوف من خلال الخروج عن النمطية السائدة و جعل الهامشي –في نظر الاغلبية- هو الموضوع المركزي بحيث"تمكن نص ادوارد من اختراق حجب التقاليد الثقافية الغربية التي شيدت على مدى عقود طويلة في القرنين الماضيين و استطاع ان يحول الانظار إلى ما هو هام و حيوي و كوني مثل حديثه عن القضية الفلسطينية بوصفها القضية الام و الهوية و النموذج في مقاومة الثقافة الامبريالية فقد جعلها في صلب المشهد العالمي حتى انه يمكن القوا احيانا لا يمكنك أن تكون فلسطينيا اكثر من ادوارد سعيد لنه يحمل فلسطينيته في دمه و فكره و منفاه (...) و اينما حل و ارتحل تكون فلسطين قضيته الاولى التي تسبب له الاشتباك مع المؤسسات السياسية و

[26]/ ادوارد سعيد: الثقافة و المقاومة. تر:غلاء الدين ابو زينة.دار الاداب.بيروت.دط.د ت.ص143.

[27]ادوارد سعيد: بعد الشماء الاخيرة/حيوات فلسطينية.ص ص19-20.(ضمن كتاب فخري صالح: ادوارد سعيد دراسة و ترجمات.ص35.

الثقافية في الغرب"[28] و لذلك كان ادوارد أنموذجا متميزا للمثقف ذي الخصائص المتفردة .

و من ثم نخلص الى القول أنه إذا كان"كل الناس مثقفون فان باستطاعة المرء أن يقول ولكن ليس لكل إنسان وظيفة المثقف في المجتمع"[29] هذه الوظيفة القائمة أساسا على مبدأ المعارضة للوضع القائم لا المحاباة و السير في ركب التُّبَّعْ يقول ادوارد سعيد:"دور المثقف هو ان يعارض و انا افكر بهذا على انه دور نحتاجه بشكل قطعي، بل بشكل يائس ، أنا لا اقصد أن يتم ذلك بطريقة سخيفة و سلبية فانا أقف ضد ذلك و لكنني عندما اكون معارضا فان بوسعي أن أمحص وان احكم و ان انتقد وان اختار على نحو يجعل من الاختيار و المداخلة أمرين يعودان الى الفرد إن من المهم أن تكون جزءا من كل آخر"[30].

[28]/ يحي عمارة:المثقف الكوني بين التاريخ و النظرية.ص10.
[29]/ فخري صالح: ادوارد سعيد دراسة و ترجمات.ص113.
[30]/ ادوارد سعيد:الثقافة و المقاومة.ص94.

قائمة المصادر والمراجع

1. ادوارد سعيد: الثقافة و المقاومة. تر:غلاء الدين ابو زينة.دار الآداب.بيروت.دط.د ت.
2. ادوارد سعيد: تغطية الإسلام.تر:محمد عناني.رؤية للنشر و التوزيع.القاهرة/مصر.ط1. 2005.
3. ادوارد سعيد: خارج المكان(مذكرات).تر:فواز طرابلسي.دار الآداب.بيروت/لبنان.ط1. 2000.
4. إدوارد سعيد: صور المثقف.تر: غسان غصن. دار النهار للنشر. بيروت/ لبنان. دط. 1996.
5. ادوارد سعيد : السلطة و السياسة و الثقافة(حوارات مع ادوارد سعيد). تر: نائلة قليقلي حجازي. دار الآداب للنشر. بيروت/ لبنان .ط 1 . 2008.
6. إدوارد سعيد: تعقيبات عن الاستشراق.تر:صبحي حديدي.المؤسسة العربية للدراسات و النشر.بيروت/لبنان.ط1. 1996.
7. حفناوي بعلي:مدخل في نظرية النقد الثقافي.منشورات الاختلاف.الجزائر.ط1 .2000.
8. عبد الله الغذامي: النقد الثقافي .المركز الثقافي العربي.المملكة المغربية/الدار البيضاء.2005.
9. علي حرب: حديث النهايات-فتوحات العولمة و مازق الهوية.المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء/بيروت. دط.2000.

10. عبد الرحمن بسيسو: الثقافة و معركة الدفاع عن الهوية. وزارة الثقافة/مشروع الخطة الإستراتيجية للثقافة الوطنية.غزة.16 افريل 2005.
11. علي ابراهيم النملة: صناعة الكراهية بين الثقافات و اثر الاستشراق في افتعالها.دار الفكر.دمشق.2008.
12. فخري صالح:إدوارد سعيد دراسة و ترجمات.الدار العربية للعلوم ناشرون.لبنان.2009.ط1.
13. مجموعة من الاكاديميين: موسوعة الاستشراق. ابن النديم للنشر. الجزائر. ط1 . 2015 .
14. وليام هارت: إدوارد سعيد و المؤثرات الدينية و الثقافية.تر: قصي أنور الذبيان. هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث كلمة.أبو ظبي.ط1. 2011.
15. يحي عمارة التاريخ و النظرية الأدبية.جريدة القدس العربي.السنة الحادية والعشرون. العدد6257 .الجمعة17 جويلية 2009 .